رابعا/ نشأة البلاغة العربيّة:

تمهيد:

مرّت البلاغة العربيّة عبر تاريخها بأربع مراحل تتمثّل في: مرحلة النّشأة والنّمو والازدهار والذّبولّ؛ فقد بدأت في شكل ملاحظات بسيطة، كان ينثرها العرب في الجاهليّة، وأخذت هذه الملاحظات تكثر مع رقي الحياة العقليّة العربيّة بعد الإسلام، وزاد تطوّرها في العصر العبّاسي، عصر الحضارة والثّقافة إذ برزت طوائف من الشّعراء والكتّاب واللّغويين والمتكلّمين تدعمها دعما قويّا وتضع أصولها الأولى بثقافة لطيفة.

1/ البلاغة في العصر الجاهلي:

*بلغ العرب في الجاهليّة مرتبة رفيعة من البلاغة والبيان، وقد صوّر الذّكر الحكيم ذلك في غير موضع مثل قوله تعالى : "الرّحمن علّم القرآن خلق الإنسان علّمه البيان"، كما صوّر شدّة عارضتهم وقوّتهم في الحجاج والجدل بمثل قوله: "فإذا ذهب الخوف سلوقكم بألسنة حداد"، ومن أكبر الدّلالة على ما حذقوه من حسن البيان أن كانت معجزة الرّسول الكريم وحجّته القاطعة لهم أن دعا أقصاهم وأدناهم إلى معارضته بقول الله تعالى على لسانه: "فآتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين" وهي دعوة تدلّ بوضوح على ما أتوه من اللّسن والفصاحة والقدرة على حوك الكلام.

*لقد ظهرت القصائد الحوليات والمقلّدات والمنقّحات والمحكمات ليصير قائلها فحلا خنديدا وشاعرا مفلقا، وقد لقّبوا شعراءهم ألقابا تدّل على مدى إحسانهم في شعرهم مثل: المهلهل، والمرقّش، المثقّب والمنخّل والمتنخّل والأفوه والنّابغة، وكأنّما كان هناك ذوق عام دفع الشّعراء ومن ورائهم الخطباء إلى البحث في تجويد كلامهم.

*وممّا لا شكّ فيه أنّ أسواقهم الكبيرة هي الّتي عملت على نشأة هذا الذّوق الّذي سيصير فيما بعد علما وخاصّة سوق عكاظ بجوار مكّة، إذ كان الخطباء والشّعراء يتبارون فيه، وكلّ يريد أن يحوز السّبق لدى سامعيه دون أقرانه.

*ويبدو أنّ من الشّعراء النّابهين من كان يقوم في هذه السّوق مقام القاضي الّذي لا تدفع حكومته، ففي أخبار "النّابغة الذّبياني" أنّ الشّعراء النّاشئين كانوا يحتكمون إليه، فمن نوّه به طارت شهرته في الآفاق، وكان في أثناء ذلك يبدي بعض الملاحظات على معاني الشّعراء وأساليبهم، ويقال إنّه فضّل "الأعشى" على "حسّان بن ثابت"، وفضّل "الخنساء" على بنات جنسها، وثار حسّان عليه وقال له:

"أنا والله أشعر منك ومنها". فقال النّابغة: حيث تقول ماذا؟ قال حيث أقول:

لنا الجفنات الغرّ يلمعن بالضّحى+++++++وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدن بني العنقاء وابني محرق+++++++فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقال النّابغة: "إنّك لشاعر لولا أنّك قللت عدد جفانك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك"، وفي رواية أخرى قال له: "إنّك قللت الجفنات فقلّلت العدد، ولو قلت الجفان لكان أكثر، وقلت: يلمعن في الضحى، ولو قلت: يبرقن بالدجى لكان أبلغ في المديح، لأنّ الضّيف باللّيل أكثر طروقا، وقلت: يقطرن من نجدة دما، فدللت على قلّة القتل، ولو قلت يجرين لكان أكثر، لانصباب الدّم، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك، فقام حسّن منكسرا منقطعا".

وفي تعليقات "النّابغة" وملاحظاته ما يدّل على أنّ شعراء الجاهليّة كان يراجع بعضهم بعضا وأنّهم كانوا يبدون في ثنايا مراجعاتهم بعض الآراء في المعاني والألفاظ، ويروى عن "طرفة بن العبد" أنّه لاحظ على "المتلمّس" أو "المسيّب بن علس" أنّه وصف في بعض شعره البعير بوصف خاصّ بالنّاقة فقال ساخرا: استنوق الجمل.

*ينبغي أن نقف قليلا عند مدرسة "زهير بن أبي سلمى"، هي مدرسة كانت تجمع إلى الشّعر روايته، وهي تبدأ ب"أوس بن حجر التّميمي"، الّذي تلقّى عنه الشّعر زهير بن المزني، ولقّنه بدوره لابنه كعب وللحطيئة، ولقّنه الحطيئة هدبة بن الحشرم العذري، ولقّنه هدبة جميل بن معمر، وعنه تلقّنه كثير، وهي مدرسة لم تكن تمضي في نظم الشّعر عفو الخاطر، بل كانت تتأتّى فيما تنظم منه، وتنظر فيه وتعيد النّظر مهذّبة منقّحة، وقد وصف الأصمعيّ قطبيها زهيرا والحطيئة فقال: "زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشّعر".

*فالشّاعر من أمثال زهير والحطيئة حين ينظم قصيدة يظلّ يتأمّل في أعطافها، فيحذف أو يزيد بيتا، ويصلح عبارة هنا أو هناك، ويصفّي الأبيات من شوائبها، ويخلّص القوافي من أدرانها تخليصا تامّا، وكانوا يسوقون ملاحظات لا ريب أنّها أصل الملاحظات البيانيّة في بلاغتنا العربيّة، ومن يتصفّح أشعارهم يجدها تزخر بالتّشبيهات والاستعارات، وتبدو فيها من حين إلى حين ألوان من المقابلات والجناسات، ممّا يدّل دلالة واضحة على أنّهم كانوا يعنون عناية واسعة بإحسان الكلام والتفنّن في معارضه البليغة.